التوقف الفكري

<"xml encoding="UTF-8?>

في مجتمعنا من السهل أن يصاب الإنسان بالتوقف الفكري، ومن الصعب أن يحافظ على تجدده الفكري، هذه ظاهرة وليست حكمة، ظاهرة بمعنى أنها مقولة اجتماعية لها أساس وجودي مدرك في الواقع الخارجي بالإمكان وصفه والحديث عنه، وليست حكمة بمعنى أنها ليست مقولة بيانية تتوخى بديع الكلام وتحسيناته، وإن كانت تصلح أن تكون حكمة كذلك.

هذه الظاهرة لفتت انتباهي كثيرا، وطالما أشرت إليها مرارا في أحاديث شفهية، وهي توحي لي بأننا كمجتمع لا نتقدم فكريا، ولا نصنف على المجتمعات التي تعرف بالتقدم الفكري حتى على المستوى العربي، ويظهر ذلك ويتجلى حين نرى أن الفكر والعمل الفكري لا يشغل إلا حيزا ضيقا ومحدودا، ولا يعرف في مجتمعنا على نطاق واسع، وهناك من يصفه وكأنه صرخة في واد.

لا أدري إن كانت هذه الظاهرة، هي موضع اتفاق أو اختلاف عند المعنيين بالشأن الفكري في مجتمعنا، وأتمنى أن تكون موضع اختلاف حتى تتعدد وجهات النظر وتتنوع، وبهذا الاختلاف يمكن إثراء النقاش حول هذه الظاهرة تفكيرا وتفاكرا، تفكيرا على مستوى الفرد، وتفاكرا على مستوى الجمع، الإثراء الذي يمكن أن يحصل مع الاختلاف أكثر مما يحصل مع الاتفاق.

ونعني بالتوقف الفكري: أن تصل الحالة الفكرية عند الفرد إلى مستوى معين، ومن ثم تتوقف عن الحركة باتجاه النمو والتجدد والصعود، وتظل على هذا الحال الواقف لزمن غير قصير ولا تتغير، وإذا تغيرت يكون التغير ضئيلا ومحدودا لا يبدل من صورة الحالة، ولا يخرجها من وضعية التوقف إلى وضعية أخرى مغايرة لها.

مع ملاحظة أن ظاهرة التوقف الفكري هي من الظواهر الفكرية، حالها كحال غيرها من الظواهر الفكرية الأخرى التي تحصل في حياة الإنسان من جهة علاقته بالفكر، فكما أن هناك ظواهر اجتماعية تحصل في حياة الإنسان، وظواهر اقتصادية ونفسية وغيرها، هنالك أيضا ظواهر فكرية، ومنها هذه الظاهرة.

ولا تحصل هذه الظاهرة بشكل حتمي، وإنما تحصل بشكل إرادي، وإذا حصلت لا يعني أنها سيطرت وتحكمت وبات من الصعب تجاوزها والتغلب عليها، وإنما يمكن تجاوزها والتغلب عليها وقلب صورتها حالها كحال الظواهر الفكرية الأخرى.

كما أن هذه الظاهرة تحصل في مختلف أطوار حياة الإنسان الفكرية، فقد تحصل عند البعض في بدايات الطور الفكري، وقد تحصل عند آخرين في الطور الفكري الوسيط، وعند آخرين قد تحصل في الأطوار الفكرية المتقدمة، وفي كل طور من هذه الأطوار تظهر هذه الظاهرة بملامح معينة وسلوك محدد.

من جانب آخر، تحصل هذه الظاهرة تارة برغبة من الإنسان وبإدراك منه، وتارة تحصل من دون رغبة منه ولا إدراك، تحصل برغبة حين يقرر الإنسان بإدراك منه التوقف عن مواصلة العلاقة بالفكر كسبا وعطاء، بناء وإنتاجا، تقدما وتجددا، لعوامل وأسباب تتعلق بالإنسان نفسه، لكنها من نوع العوامل والأسباب التي بالإمكان التحكم بها، والسيطرة عليها، فهي ليست قاهرة، ولا هي فوق الإرادة.

وفي مقدمة هذه العوامل والأسباب، تأتي العوامل والأسباب النفسية كشعور الإنسان بالإحباط، أو حين تعرضه لصدمة قوية تكون مؤثرة بشدة نفسيا، ومنها عوامل وأسباب اجتماعية سوف نأتي على ذكر بعضها، ومنها عوامل وأسباب اقتصادية تتعلق بظروف المعيشة حين تكون صعبة وقاسية، وطالما غيرت مثل هذه الظروف من مسلكيات الإنسان بما في ذلك مسلكياته الفكرية.

وتحصل هذه الحالة من دون رغبة من الإنسان لعوامل وأسباب مزدوجة في العادة، لها علاقة بالإنسان نفسه، ومن وجه آخر لها علاقة بالمجتمع. ما يتصل بالإنسان فإن من أكثر العوامل المؤثرة عامل عدم التنبه إلى الذات، وتحصل هذه الحالة بتأثير الانشغالات اليومية، وتوالي الحياة الساكنة، وتعاقب الوضعيات الروتينية الرتيبة، ما يؤدي إلى تقلص وتراجع الحافز الفكري تدريجيا، ويصل مع مرور الوقت إلى نوع من التوقف الفكري.

وفي المجال الفكري العام، مرت علي العديد من الصور والحالات التي يصدق عليها وصف ما أسميته عدم التنبه إلى الذات، فالذي لا يتنبه إلى ذاته يفقد حوافز التقدم، ومن دون هذه الحوافز يصاب الإنسان مع مرور الوقت بالتوقف الفكري، وهذا ما يعرفه أو ما سيعرفه هؤلاء الأشخاص عن أنفسهم، وما يعرفه كذلك أولئك الذين تغلبوا على هذه الحالة، أو الذين تخلصوا منها.

وما يتصل بالمجتمع، فالتأثير الذي يحصل من هذه الجهة، يظهر حين يكون المجتمع لا صلة له بالفكر أو صلته به ضعيفة وهزيلة، وحين لا يلتفت لحركة الأفكار ولا يتنبه لها، ولا يدرك حاجته إليها، وهكذا حين لا يعطي اعتبارا للأشخاص الذين يجتهدون في بناء المفاهيم وتكوين الرؤئ وابتكار الأفكار، هذه الوضعيات إذا سادت في المجتمع وتمادت فإنها تمتص من البعض حوافز النهوض والتقدم الفكري، وتنتهي بالبعض إلى الإصابة بالتوقف الفكري.

ومن الصور الدالة على ذلك، ما سمعته في وقت سابق من أحد الأخوة الأذكياء، حين سر لي بالقول نحن في مجتمعنا بدل أن نرفع من مستوياتنا الفكرية بحاجة لتنزيل مستوياتنا حتى نجاري عموم الناس، وسمعت من زميل آخر أعده من الأذكياء كذلك قوله: إننا في مجتمعنا نكاد نصاب بالفقر الفكري.

وأبلغ ما سمعته في هذا الشأن، ما حدثني به أحد الأخوة عن نفسه بقوله: إنه بدأ يعاني من تراجع الخيال عنده، وهكذا تتعدد الصور والحالات الدالة على ما يتركه المجتمع الساكن فكريا من تأثير في امتصاص وتراجع حوافز النهوض الفكري، بالشكل الذي ينتهي بالبعض إلى التوقف الفكري1.

---

1. الموقع الرسمي للأستاذ زكي الميلاد و نقلا عن صحيفة اليوم، الأحد 20 نوفمبر 2016م، العدد 15864.